آراء حرة ، لعلها تطوئ معركة !

بين العـــقاد والرافعى

للأستاذ سيد قطب

— ١ —

قرأت ما كتبه الأستاذ سعيد العريان تحت هذا العنوان فى الرسالة ، كما قرأت كل ما كتبه عن «مصطفى صادق الرافعى»

قرأته تحت تأثير عامل نفسى خاص ، ذلك أنه كان لى رأى فى المرحوم صادق الرافعى ، لعل فيه شيئاً من القسوة . ولما كنت على ثقة أن هـذا الرأى لم يتدخل فى تكوينه عندى أى عامل خارجى ، وإنما كان نتيجة لعدم التجاوب بين آثاره الأدبية وبينى ، فقد كنت فى حاجة لأن أسمع من أصدقاء الرافعى ما عساه يخفف شدة هذا الحكم ، ويكشف لى عن بعض حيـاة الرجل التى اشتركت فى تكوين أدبه ، فلعل فيها تفسيراً وتبريراً لما كنت أراه فيه ، مما يستدعى قسوة الحكم ، وشدة النفور

وكنت أخذت ألمح من كتابات الأستاذ سعيد أنه صديق له ، مطلع على الكثير من أسرار حياته ، وعوامل إنتاجه ، فقلت : اتبعه فلعلك منقلب صديقاً للرافعى أو محايداً بالنسبة له !

والقصة بين الرافعى وبينى أننى قرأت له أول ما قرأت كتابه : « حديث القمر » فأحسست بالبغضاء له . أجل بالبغضاء ، فهى أصدق كلمة تعبر عن ذلك الإحساس الذى خالجنى إذ ذاك . ولم تكن ثارت بين العقاد وبينه إذ ذاك خصومة ، ولم أكن سمعت شيئاً عنه من العقاد أوسواه ، مما قد يكون سبباً فى هذه البغضاء . ولو خالجنى هـذا الشعور بعد خصومته للعقاد لوجدت بعض التفسير ، فأنا لا أنكر أننى شديد الغيرة على هذا الرجل ، شديد التعصب له ، وذلك نتيجة فهم صحيح لأدبه واقتناع عميق بفطرته ، لا يؤثر فيه أن تجف العـلاقات الشخصية بينى وبينه فى بعض الأحيان

ولقد كنت أكره نفسى بعد ذلك على مطالعة الرافعى ، فتزداد كراهية لهذا اللون من الأدب ، دون أن أجد التعليل . ذاك أننى كنت إلى هذا الوقت أديباً يتذوق فحسب ، لا ناقداً يستطيع التعليل ، ويصبر على التحليل

والرجل قد مات فما تحسن القسوة عليه ، ولكن لا يصح أن يكون الموت معطلاً للنقد ، ولهذا سأتحدث عنه كما لو كان حياً ، لأن الذى يعنينى منه هو إنتاجه الأدبى ، وما يبدو من نفسه خلال هذا الانتاج

كنت أشك فى « إنسانية » هذا الرجل ، قبل أن أشك فى قيمة أدبه ؛ وكنت أزعم لبعض إخوانى فى معرض المناقشة ، أنه خـواء من « النفس » . وأن ذلك سبب كراهيتى له ، ولو أننى لم أره مرة واحدة ، ولم أجلس إليه

ولذلك كان همى أن أبحث فيما كتبه الأستاذ العريان عن حياته ، لا عن أدبه ؛ وكان يهمنى أن أعثر فى ثنايا هذه الحيـاة على « نفس » وعلى « إنسانية »

ولهذا اغتبطت ، إن لم أقل دهشت ، حينما رأيت الأستاذ سعيدا يذكر للرافعى « حبـاً » ويحدثنا عن مظاهر هـذا الحب وخطواته . ذلك أن خيـالى المتبعث من قراءتى للرافعى لم يكن يطوع لى أن ألمح إمكان وجود هذه العاطفة فى حياته ؛ فالحب يتطلب قلباً ، وكنت أزعم أن ليس للرجل قلب ؛ والحب يقتضى « إنسانية » وكنت افتقدها فيه

إلى هذا الحد كان الحكم قاسياً على الرجل ، وإلى هذا الحد كان تشاؤمى فى تقديره

ولقد ظللت هكذا حتى استطعت أن أكون ناقداً ، لا يكتفى بالتذوق والاستحسان أو الاستهجان ، ولكن يعلل ما يحس ويحلله فماذا كانت النتيجة ؟

لقد عدلت حكمى قليلا ، وخفت حدته ، ولم أعد أستشعر البغض والكراهية للرجل وأدبه ، ولكن بقى الأساس سليما

كنت أنكر عليه « الانسانية » فأصبحت أنكر عليه « الطبع » ، وكنت لا أجد عنده « الأدب الفنى » ، فأصبحت لا أجد عنده « الأدب النفسى »

الرافعى أديب معجب ، فى أدبه طلاوة وقوة ، ولكنه بعدُ أدب الذهن لا أدب الطبع ؛ فيه اللمحات الذهنية الخاطفة ، واللفتات العقلية القوية ، التى تلوح للكثيرين أدباً مغرباً عميقاً

لذيذاً ، ولـكن الذى ينقصها أنه ليس وراءها ذخيرة نفسية ، ولا طبيعة حية

لم يكن يعنى الرجل فى أدبه الحقيقة الأزلية البسيطة ، بقدر ما يعنيه أن يصور الحقيقة الوقتية محكمة النسج ، رائعة المظهر ، تشبع الذهن ويستطيبها ، ولـكنها لا تلمس القلب أو يسيغها

وكثيراً ما يختلط أدب الذهن وأدب الطبع ، إذا كان مع ذكاء وقوة . وما من شك أن الرافعي كان ذكيا قوى الذهن ، ولـكنه كان مغلقاً من ناحية الطبع والأريحية

أترى كبير فرق بين حكم الأديب وحكم الناقد ؟

قد يكون ، ولـكنهما قريبا المأخذ ، متحدا الاحساس .

* * *

وبعد فما كان يمكن أن يتفق العقاد والرافعى فى شىء ! فلـكل منهما نهج لا يلتقى مع الآخر فى شىء

العقاد أديب الطبع القوى والفطرة السليمة ، والرافعي أديب الذهن الوضاء والذكاء اللماع

والعقاد متفتح النفس ريان القلب ، والرافعي مغلق من هذه الناحية متفتح العقل وحده للفتات والومضات

والطاقة العامة لـكل منهما فى ناحيته متفاوتة بعد ذلك ، فطاقة العقاد النفسـية أقوى من طاقة الرافعى الذهنية ، وعالم العقاد والحيـاة فى نظره أشمل وأرحب بكثير من العالم الذى يعيش فيه الرافعى ويبصر الدنيا على ضوئه

وإذا لم تـكن كلمة اليوم تتسع لضرب الأمثال ، فستتسع الـكلمات المقبلة للمثال بعد المثال

* * *

إنما يعنينى اليوم ما كتبه الأستاذ سعيد العريان !

ففيما كتبه وهو أخص أصدقاء الرافعي مصداق لـكثير مما تخيلته فيه ؛ وفيما كتبه عن العقاد أشياء كثيرة تستحق المراجعة ؛ وسأبين هذا وذلك

فى إباء الرافعى أن يشترى كتاب « وحى الأربعين » مع حاجته لنقده مايشير إلى ضيق الأفق النفسى الذى كان يعيش فيه ، وتصوير للون من الحقد الصغير قلما يعيش فى « نفس » رحبة الجوانب متفتحة للحياة مستعدة لقبول صورها المختلفة المتعاقبة ؛ وهذا ما كنت أتصوره من أدبه

وفى البواعث التى تدعوه لنقـد وحى الأربعين كما صورها صديقه ما يصور نظرة الرجل إلى النقد والأدب والغاية منهما ، ومدى نظرته العامة للحياة ، واتساع مداها فى نفسه ، وهو لا يبعد كثيراً عن المدى الذى تصورته له

وفى اختيار الظروف السياسية للنكاية ، دون أن يكون وراءها عقيدة ما ، إلا شفاء الحزازات ، كالمقال الذى كتبه فى الـكوكب ، وكلمة وكليمة بالرسالة ما يؤيد خـلو الرجل من « العقيدة » وهى الملازمة «للطبع» المفقود فى الرافعى ، فدوافعه فى الأدب لم تكن دوافع العقيدة والانطباع ، بمقدار ما هى وليدة الفـكر والتوليد والمماحكات

ويخطئ من يعتقد أن ما أقوله هنا مقصود به شخص الفقيد ولـكنه شىء لابد منه لتقدير أدبه على حقيقته

* * *

وفيما كتبه الأستاذ سعيد عن العقاد كثير من الجهل بطبيعة العقاد ودوافعه فى الحياة ، وعوامل الـكتابة فى نفسه

والأستاذ معذور فى هذا لأنه لم يختلط بالعقاد أولاً ، ولأن نفسه لم تتفتح لأدب العقاد فيفهمه ثانياً

ولقد كان يعيش فى بيئة الرافعي وجوه ، ويلوح لى من كتابته أن ذلك يلائم جوه الخاص ، ويناسب بيئته الروحية

وأول ما يخطئ فيه اعتقاده أن طعن العقاد على الرافعى من ناحيته الوطنية ، فى رده على نقد وحى الأربعين ، كان حيلة أملتها البراعة السياسية

ووجه الخطأ هو تصوير العقاد كالرافعى فى هذه الخلة النفسية وفى وسائل الصراع ، واستعمال الحيل الذهنية ، والمناسبات العارضة لـكسب القضية !

والذين يفهمون العقاد لا يعرفون فيه هذه الصفة . ولـكنهم يعرفون طبيعة قوية مخلصة ، لا تتذرع بالحيل الذهنية ، والبراعة السياسية العارضة ، ولـكنها تتذرع بنفوذ الادراك ، وعمق الاحساس ، وشمول الشعور . فاذا اتهم العقاد الرافعي بأن نقده

لوحى الأربعين منشؤه ضغينة شخصية ، وإيحاء سياسى كما قيل ، فإنما هو معتقد هذا فى صميم نفسه ، وما يعنيه ما ينال الرافعى من الناحية السياسية ، قدر ما يعنيه « كشفه » من الناحية النفسية ، وتصوير البواعث التى تهيجه لهذا النقد اللاذع

وما عن مبدأ خلق يصدر العقاد فى هذا ، ولكن عن طبع قوى يخلق المبادئ الخلقية ، ويختار منها ما يناسبه ، ويرفض مالا يرتاح إليه ، ولو تواضع الناس عليه !

ويخطئ الأستاذ سعيد كذلك فى تسمية ما كتبه العقاد فى رده شتما وسباً للرافعى ، كما أخطأ فى تسمية ما كتبه عن مخلوف سباباً وشتائم

ويبدو أننا فى حاجة لتحديد معنى السب والشتم فى لغة الأدب ، بعيداً عن لغة القانون

فى حاجة إلى بحث هذا الموضوع على ضوء من علم النفس وعلم الأخلاق وتطبيقهما على العالم الأدبى ، فطالما سمعت وصف الكلام بهذين الوصفين ، مستمداً هذا الوصف من ألفاظ الكلام دون بحث أسبابه ، والحالة التى يعالجها

وطبيعى أن الحكم على الكلام وحده ، مجرداً عن بواعثه وملابساته حكم شكلى ، إن أرضى ذوى المواهب الذهنية ، فلن يرضى ذوى المواهب النفسية ؛ وإن أرضى العقل فلن يرضى القلب

وفى هذا عودة إلى الفوارق الأساسية بين مدرسة العقاد ومدرسة الرافعي !

كتب الرافعى عن وحى الأربعين كلاماً يعترف الأستاذ ببواعثه الأصلية ، والعقاد يعرف هذا ، ويعتقد فى صفات الرجل النفسية ، وفى نصيبه من الطبع السليم والفهم المتفتح أشد مما أعتقد أنا . ودواعيه لذلك الاعتقاد كثيرة ومفهومة ، فإذا كتب يصور الرافعى كما هو فى خيال العقاد ، وكما هو فى الحقيقة ، فليس الذنب ذنب العقاد فى قسوته ، فانما هو يصور حقيقة ، أو على الأقل ما يعتقد هو أنه حقيقة

وإذا كتب عن « مخلوف » يتهكم به ، ويشنع بسوء فهم للأدب ، فمبعث ذلك عظم الفرق بين طاقة العقاد وطاقة مخلوف ، والحنق على أن يكون مثل هذا ناقداً لمثل ذاك

والحق أن هذا مما تضيق به الصدور . وقد كنت أنا لا العقاد مستعداً للثورة والحنق ، لو تناول بعض هؤلاء أدبى بمثل هذا الضيق فى الفهم ، والاستغلاق فى الشعور ، أو بمثل التلاعبات الذهنية ، واللفات البهلوانية ، التى تناولا بها أدب العقاد

ثم لا بد من عتب على الأستاذ سعيد فى أن يسمح لصداقته للرافعى أن تعدو على التقدير الصحيح للعقاد ، فيعرض بلقب « أمير الشعراء » الذى « ينحله » الدكتور طه حسين بك للعقاد « تملقاً » للشعب ونزولا على هواه

وما أريد أن أبحث عن بواعث الدكتور طه لإطلاق هذا اللقب ، فصلتى بالدكتور لا تزال حتى اليوم لاتسمح لى بتفسير حقيقة بواعثه . والحكم على النيات عمل عسير لا يصح الاستخفاف به ، ولكننى أتحدث عن مظهر هذا التصرف لا عن باعثه . ورأيى أن هذا اللقب غير لائق بالعقاد ، لأن المسافة بينه وبين شعراء العربية فى هذا العصر أوسع من المسافة بين السوقة والأمراء

وإننى لأكررها مرة أخرى ، وأعينها فى معرض الحقائق الواقعة لا معرض الجدل والمناقشة

قد يكون هناك كتاب يتقاربون مع العقاد ، ولكن ليس هناك شعراء فى لغة العرب يتقاربون مع العقاد

ولقد كنت هممت باصدار بحث عن الشعراء المعاصرين ، ونظرت فى أدب جميع الشعراء الأحياء — وأنا من بينهم — ولكن عاقنى عن إصداره أنى لم أجد نقط اتصال بين العقاد الذى سأكتب عنه أولاً ، وبين جميع الآخرين من الشعراء

الفرق هائل جداً ، وأكبر مما يتصوره الأكثرون ، بين طاقة هذا الشاعر والطاقات الأخرى

وسيغضب لقولتى هذه كثير من أصدقائى الشعراء المعاصرين ، ولكنهم ليسوا أكرم على من نفسى ، وأنا حسن الظن بشعرى ، — وليعذرنى أنصار مبدأ التواضع — ولكننى حين أضعه أمام شعر العقاد يتلاشى ، وتحتبس نفسى عن التعبير حتى يسكن صدى شعر العقاد فى نفسى !

هذه كلمة حق وعقيدة . وسأتولى شرح الأمثلة التى تثبت كل ما أسلفته من آراء

(حلوان) سيد قطب